جيوبوليتيكا الحِراك:
ما الذي يقدّمه الحِراك لمستقبل القوة الجزائرية؟

جلال خَشِّيب*

ملخص: تُقدّم هذه الورقة قراءةً في التوازنات القائمة التّي أنتجها الحِراك في الجزائر بعد انتهاء حقبة الرئيس السابق عبد العزيز بوتفليقة، وتُحدّد مراكز القوة الجديدة، وتُشخّص معالم الوضع الانتقالي الاستثنائي الذّي تعيشه البلاد منذ الثاني والعشرين من فبراير 2019 ثم تسعى الورقة إلى إنضاج رؤية جيوبوليتيكية جديدة للبلاد، تحاول فيها تحديد أبرز نقاط القوة الكامنة التّي تتميّز بها الجزائر، وأسهم الحراك في كشفها وتحريرها، محاولةً هنا الاستثمار في مُخرجات هذا الحراك الحضاري التاريخي؛ لأجل بناء دولة قويّة ذات سيادة متحرّرة داخليًّا، ومؤثّرة ذات إشعاع خارجي على المستوين الإقليمي والدولي على حدّ سواء، مستعينةً في هذه المهمّة بما يقدّمه حقلا الجيوبوليتيك والعلاقات الدولية من تبصّرات نظرية.

* باحث، الجزائر

The Geopolitics of Hirak:
What Does the Hirak Offers for the Future of Algerian Power?

JALLEL KHECHIB*

ABSTRACT This paper presents a brief reading of the existing balances produced by the Algerian Hirak (mass demonstration) in the post-Bouteflika era, determines the new centers of power and identifies the features of the exceptional transitional situation that the country has been witnessing since February 22nd. Then, the paper works on the shaping of a new geopolitical vision for the country in which it tries to identify the main inherent points of strengths in Algeria which was revealed and liberated by the current Hirak, in an attempt to invest in the outputs of this historical mobility for the purpose of building a strong, liberated and sovereign state; as well as an influential country on the regional and global scales

* Researcher, Algeria

رؤية تركية
2019 - (8/3)
27 - 9

Doi:10.36360/1560-008-003-002

مقدّمة:

تشـهد الجزائر منذ أشـهر لحظات اسـتثنائية في تاريخها المعاصر، ففي يوم الثاني والعشرين من فبراير 2019 خرج الآلاف ثمّ الملايين من الجزائريين إلى السـاحات العامة منتفضين على سـنوات طويلة مليئة بأشـكال الفساد السياسي كافة: الظلم الاجتماعي والتدهور الاقتصادي الذّي كرّسـه نظـام بوتفليقة طيلـة عقدين من الزمـن، مُطالبين بالحريـة والديمقراطية ودولة العدالـة والقانـون التّـي حُـرم منها هذا الشـعب منذ اسـتقلال البلـد مطلع سـتينيات القرن المنـصرم.

وبالرغم من حالة الخوف والتوجّس الأمني الذّي سـبق أيّام الحراك، ومساعي التخويف ومخـاوف الجزائريـين من انفلات الوضع والاتّجـاه نحو الفوضى كما حـدث في بلدان "الربيع العـربي"، إلاّ أنّ الميزة التّي اتسّـمت بها مطالب التغيير في الجزائـر هذه المرّة كانت هي الحدث الأبـرز الـذّي صنع "نموذج التغيـير الجزائري" إلى الآن، إذ بهر الجزائريـون العالم بمظاهرات سـلمية حضارية توحدّت فيها الأصوات والمطالـب والغايات والأدوات رغم كلّ محاولات رموز النظام السـابق تشتيت مساعي التغيير، أو ما عُرف لدى الجميع باسم "الحِراك"، ليصير مصطلحًـا مرادفًـا لإرادة الشـعب في فرض إرادته المحضـة في التغيير، بعيدًا عـن كل الأبوية السياسـية في الداخل، أو وصايةٍ سياسـيةٍ من الخارج.

إلى اليـوم، يسـتمر الجزائريـون في التعبير عـن روح الحـراك كلّ يوم جمعـة، في مظاهراتٍ مليونيـة، حاملين شـعارات قديمة-جديدة تُعبّر عن تطلّعاتهـم المرحلية والبعيدة في بناء دولة العدالـة والقانون، محتفلين في كلّ مرّةٍ بإنجاز جديد يُسـهم في بلوغه حراكهم السـلمي ابتداءً من الإسـهام في إسـقاط بوتفليقة، إلى سـجن رموز وشخصياتٍ سياسيةٍ وعسـكريةٍ نافذة في الجزائر لم يحلم الجزائريون يومًا أن يروها وراء القضبان. ومن المعروف أنّ لكلّ حراكٍ أو ثورةٍ ميـزاتٍ ونقائـصَ، ولا يزال حراك الجزائر غـير مكتملٍ ما دامت البـلاد تعيش إلى الآن حالةً انتقاليةً حرجة، إلاّ أنّنا نرى إلى هذا اليوم لحظةً فارقةً في تاريخ البلاد، تستوجب من الباحثين وأصحـاب الرؤى خصوصًا الإسـهام في النقاش العام، وتطوير حلـولٍ مرحليةٍ، وتصوّراتٍ بعيـدة المـدى؛ لأجل بناء الدولة التّي يحلم بها الجزائريـون، وهذا ما تحاول هذه الورقة العمل عليـه، فبعد أنْ تُقـدّم قراءةً في التوازنات القائمـة التّي أنتجها حراك الجزائـر بعد انتهاء حقبة الرئيـس السـابق عبد العزيـز بوتفليقة، فتُحـدّدَ مراكز القوة الجديدة وتُشـخّص معالم الوضع الانتقـالي الاسـتثنائي الذّي تعيشـه البلاد منذ الثـاني والعشرين من فبراير الماضي، سـتحاول الورقـة تمهيـد الطريق لإنضاج رؤيـةٍ جيوبوليتيكيةٍ جديدةٍ للبلاد، تسـعى فيها إلى تحديد أبرز نقـاط القـوة الكامنة التّي تتميّز بها الجزائر، وأسـهم الحراك في كشـفها وتحريرهـا، محاولةً هنا الاسـتثمار في مُخرجـات هذا الحراك الحضـاري التاريخي؛ لأجـل بناء دولةٍ قويّةٍ ذات سـيادة، متحرّرةٍ داخليًّا، ومؤثّرةٍ ذات إشعاعٍ خارجيٍ على المستوين الإقليمي والدولي على حدّ سواء،

مستعينةً في هذه المهمّة بما يقدّمه حقلا الجيوبوليتيك والعلاقات الدولية من تبصّرات نظرية، ومتسائلةً بشكل أساسي عن الكيفية التّي يُمكن فيها للجزائر أن تستثمر مخرجات هذه اللحظة التاريخيةً التّي يُقدّمها الحراك في بناء عناصر القوة وتطويرها، والتأثيرات الداخلية والخارجية لديها في المستقبل المنظور؟

1. معركة الإرادات: الشعب، الجيش والسلطة ما بعد بوتفليقة:

منذ الدفع بالرئيس السابق عبد العزيز بوتفليقة إلى الاستقالة، خرج النظام السياسي الجزائري بشكل فعلي إن صحّ التعبير عن طبيعته السابقة التّي ميّزته لسنوات؛ أي حالة الصراع الذّي كان قائمًا بين الأجنحة المشكّلة له، إذ كانت مقدّرات القوة والسطوة قُبيل الحراك موزّعةً بشكل متفاوت بين أربعة أجنحة متنافسة، يلعب رموزها بكل الأوراق الممكنة لتحصيل المكانةً والنفوذ في مرحلة ما بعد بوتفليقة المريض. مع ذلك، فقد ظلّ هذا التنافس أو الصراع يحكمه مبدأ العقلانية إلى حدٍّ بعيد، ونقصد بالأجنحة هنا: جناح الرئاسة (بزعامة السعيد بوتفليقة شقيق الرئيس)، وجناح هيئة أركان الجيش (بقيادة الجنرال القايد صالح)، وجناح المخابرات "الجديدة" (بقيادة الجنرال بشير طرطاق)، وجناح المخابرات "القديمة" (بقيادة الجنرال توفيق).

وقد كان لكلّ طرف من هؤلاء أوراق قوّة في الداخل والخارج ونقاطُ ضعف أيضًا، فجناح الرئاسة امتلك صلاحيات دستورية "إمبراطورية"، كخيارات التعيين والعزل، كما كان يحظى بدعم أمريكي- فرنسي كبير من الخارج، إلاّ أنّ المُستخدم لهذه الصلاحيات (السعيد بوتفليقة

منذ مرض أخيه سنة 2013) لم يكن يمتلك لا الشرعية ولا المشروعية، ولم يحظ بالثقة المطلقة من أحدٍ داخل النظام، بل حتّى داخل الجناح الذّي كان يُمثّله هو، أمّا قيادة أركان الجيش فامتلكت -ولا تزال- وسائل القهر المادي، متميّزةً بالهيراركية العالية التّي تضمن الطاعة والولاء بين قياداتها، وبالرغم من إمكانية انفرادها بدعم روسي من الخارج، إلاّ أنّها بحكم الدستور بقيت دومًا في قراراتها تحت سُلطة الرئاسة، والأمر نفسه بالنسبة لما سمّيناه هنا "بجناح المخابرات الجديدة" التّي خضعت في ولاءها المعلوم للرئاسة، وكانت الطرف الأضعف هنا، إلاّ أنّ قوتّها كانت تكمن في حجم الملفات التّي امتلكتها عن الجميع، إضافة إلى ما استطاعت تكوينه من شبكة علاقات وولاءات داخل مؤسّسات الدولة والمجتمع وتحريكها منذ سنة 2015؛ أي منذ استجلاب السعيد بوتفليقة لمديرها الجنرال بشير طرطاق والإطاحة بالمدير السابق المعروف بالجنرال توفيق. أمّا فيما يخصّ "المخابرات القديمة"، والتّي نقصد بها هنا شبكة الولاءات التّي نسجها الجنرال توفيق في جهاز المخابرات والجيش ومؤسّسات الدولة والمجتمع كافة، أو ما يُسميه الجزائريون اليوم "بالدولة العميقة"، فلم تكن تمتلك في الحقيقة أيّ صلاحيات دستورية، كما أنّها كانت منذ إبعاد قائدها الجنرال توفيق سنة 2015 خارجَ قرارات "العلبة السوداء"، إلاّ أنّها ظلّت تُحاول العودة مجدّدًا إلى الفعل والتأثير في قرارات البلاد، ونقاط قوتّها تكمن كما قلنا في شبكة العلاقات والولاءات التّي كونّتها طوال ربع قرن كامل، وحجم الملفات الثقيلة التّي تمتلكها عن الجميع، وكذا إمكانية أن تصير طرفًا توافقيًّا أو نافذًا داخل النظام السياسي الجزائري ما بعد بوتفليقة، في نظر القوى الخارجية الكبرى الأساسية، وبخاصّة فرنسا.

تشهد الجزائر منذ أشهر لحظات استثنائية في تاريخها المعاصر ففي يوم الثاني والعشرين من فبراير 2019 خرج الآلاف ثمّ الملايين من الجزائريين إلى الساحات العامة منتفضين على سنوات طويلة مليئة بأشكال الفساد السياسي كافة: الظلم الاجتماعي والتدهور الاقتصادي الذّي كرّسه نظام بوتفليقة طيلة عقدين من الزمن

ما نُؤكّده هنا هو تلك الطبيعة المتداخلة والمعقدّة التّي كانت تُميّز النظام السياسي الجزائري قُبيل الحراك، فكلّ طرفٍ داخلي سعى إلى أن يكون صاحب الوزن الأكبر في قرارات "العلبة السوداء" فيما بعد بوتفليقة، كما أدرك كلّ طرفٍ أنّه غير قادرٍ في ذلك الوقت على القضاء النهائي على الآخر، لذا فإنّ أقصى ما كان مُتاحًا آنذاك هو الخروج من هذه اللعبة، وقد حافظ كلّ طرفٍ على بقائه/ بقاء مصالحه، ومحاولة إلحاق أكبر الأضرار بالأطراف الأخرى إن أمكن، إلاّ أنّ الأمر الحيوي الذّي أجمعت عليه كلّ الأطراف المُكوّنة بتوازناتها هذه للنظام السياسي هو ضمان عدم خروج سلطة القرار بشكلٍ نهائي خارج هذه التركيبة ورموزها إلى طرفٍ آخر قد يُنهي وجودها جميعًا إذا فرض نفسه بوصفه طرفًا فاعلًا في "العلبة السوداء" فيما بعد بوتفليقة ألا وهو الشعب، صاحب الشرعية الوحيدة في أيّ دولةٍ ديمقراطية أو تدّعي بأنّها ديمقراطية، وبخاصّة أنّ الشعب صار عاملًا مُهمًّا في المشهد السياسي الجزائري يُحسب له، منذ أن خرج

بشكلٍ سلمي بالملايين، كاسرًا حاجز الخوف والترهيب، مُطالبًا بالتغيير يوم الثاني والعشرين من فبراير 2019م بغضّ النظر عن الجدل القائم بخصوص العوامل التّي أدّت إلى خروجه في ذلك اليوم أو الأطراف الحافزة لذلك.

إنّ صراع الأجنحة المذكور آنفًا بتعقيداته الداخلية وتداخلاته الخارجية أسفر عن انتصار الجناح الـذّي مثلّته هيئة أركان الجيش بقيادة الجنرال القايد صالح، الـذّي مكّنته عواملٌ عدّة من تجميع السلطة في يده وإلحاق الهزيمة بالأجنحة الأخرى، بل إنّ الأمر وصل إلى شنّ حملة محاسبة لرموزها، ولكلّ من ارتبط بهم من مسؤولين سياسيين وحزبيين وإداريين ورجال أعمال، وإخضاعهم للمحاكمات بشكلٍ أدخل الجزائريين في حالة ممتزجةٍ من الفرح، والدهشة والشكّ في آن، فلا أحد بالفعل كان يحلم بإمكانية رؤية شخصية كالجنرال توفيق تَمثُلُ أمام المحكمة العسكرية، مُواجهةً تُهمًا خطيرةً، كالخيانة العظمى، وهو الذّي كان يُسمّي نفسه "بربّ دزاير" أي "إله الجزائر"، وبالفعل فقد هندس هذا الرجل المشهد السياسي والأمني للجزائر طوال ربع قرن من الزمن.

اليوم في أثناء كتابة هذه الورقة بعد الجمعة السابعة عشر من حراك الجزائر- تعيش البلاد مرحلة انتقالية في تاريخها المعاصر من الصعب جدًّا التنبؤ بالمسار الذّي من الممكن أن تأخذه؛ نظرًا لعوامل عدّة، أهمّها: عدم وضوح نوايا القيادة العسكرية تجاه المطالب القائمة للشعب، ومدى استعداداتها لنقل السلطة إلى الفاعل المدني الذّي قد يُرشّحه الشعب في أول انتخابات، والاكتفاء من ثَمّ بدورها الدستوري، ومدى قدرة الشعب نفسه بنخبه على إخراج ممثّلين له أو مُرشّحين، والانقسام الجماهيري القائم اليوم تجاه الدور الذّي تضطلع به المؤسسة العسكرية في هذه المرحلة والخيارات التّي تسلكها، ومدى قدرة رموز الأجنحة المنهزمة على تحريك شبكات ولاءاتها المتبقيّة في مؤسّسات الدولة والمجتمع المدني ووسائل الإعلام لحشدها ضدّ إرادة القيادة العسكرية، هذا إضافة إلى دور العامل الخارجي، ولاسيّما فرنسا التّي تتقاطع مصالحها مع الأطراف الداخلية المنهزمة في هذه المعركة، على غرار الجنرال توفيق و"دولته العميقة"، أو شقيق الرئيس وشبكة رجالات أعماله وولاءاته. على سبيل المثال لا الحصر، يجري الآن اللعب على وتر الهوية بقوّة في مناطق معروفة بتمركز الأمازيغ بها، على غرار منطقة القبائل والمعروفة بتاريخها النضالي الصارم ضدّ السلطة، بل إنّ فرنسا تدعم وتحتضن على أراضيها شخصية على غرار فرحات مهني المعروف بخطابه العرقي المتطرّف الداعي إلى انفصال منطقة القبائل، والمشهور بولائه الشديد لفرنسا، كما تعمل القيادة العسكرية الآن على إثبات وجود علاقات وطيدة بين مشروعات فرنسا في الجزائر وثلّة من الشخصيات العسكرية والسياسية والمالية والمدنية التّي لا تزال في طور العمل والنشاط الآن، وفي كلّ مرّة تُستدعَى شخصية ما للمثول أمام القضاء بتهم الفساد، أو التآمر، أو حتّى الخيانة العظمى.

لا تزال الظروف القائمة الآن غير مساعدة على تنظيم انتخابات نزيهة يختار فيها الشعب رئيسه بحريّة، وتُصّر الجماهير على شعارها السائد الآن "يتنحاو قاع" أي "فليُبعَدو جميعًا" في إشارة إلى كلّ مسؤول أو شخصية ارتبط اسمها بفساد النظام السابق، مُطالبين برحيل رئيس الدولة الحالي عبد القادر بن صالح، ورئيس المجلس الدستوري كمال فنيش، ورئيس الحكومة نور الدين بدوي، وحلّ حكومته غير الشرعية، يبدو بأنّ القيادة العسكرية متمسّكة إلى الآن بخطّة غير معلومة التفصيلات، تجعلها تُبقي هذه الشخصيات في مناصبها إلى أجل غير معلوم، حتّى تضمن كما تقول عدم الخروج عن الدستور، وتمنع دخول البلاد في الفوضى، كما تتوالى في الجهة الأخرى سلسلة من المبادرات المقترحة من شخصيات وطنية عديدة أو تنظيمات مدنية أو أحزاب سياسية قديمة أو في طور التشكّل لأجل إيجاد مخرج دستوري لهذا الانسداد الذّي تعيشه البلاد، ولعلّ أهّمها تلك البيانات التّي قدّمها الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي الذّي يرى فيه كثيرٌ من الجزائريين شخصيةً وطنيةً مناسبةً لقيادة هذه المرحلة الحرجة من تاريخ البلاد بشكل مؤقّت، يحرص فيها على تأسيس لجنة وطنية للمراقبة والإشراف على الانتخابات، وتتمكّن فيها الأحزاب والمجتمع المدني من تنظيم نفسه وإخراج مرشحين. كما يكثر الجدل بخصوص مسائل عدّة على غرار حملة الاعتقالات التّي تُباشرها المؤسسة العسكرية: توقيتها، ومدى شرعيتها، وغاياتها، ومنها كذلك طبيعة الدولة المنشودة، إذ تتصاعد شعارات عدّة على غرار "دولة نوفمبرية-باديسية" أو "جمهورية ثانية"، وكلّها شعارات تعكس أيديولوجيات ومرجعيات فكرية وسياسية متضاربة تُصعِّب مهمّة الخروج من هذا الانسداد القائم، وتُغرق المواطن العادي في دوّامة غير منتهية، إذ يُعاني هذا المواطن الآن ضخًّا معلوماتيًّا رهيبًا من وسائل الإعلام التقليدية والبديلة، تكثر فيه الأخبار الصحيحة والكاذبة والمتضاربة والشائعات فيما يشبه حربًا نفسية إعلامية تخوضها الأطراف الفاعلة المتنافسة لحشد الجماهير إلى صفّها. كلّ ذلك يأتي في سياق تعيش فيه الجزائر مشكلات جدّية على مستويات عدّة قد لا يتحمّل اقتصاد البلاد عبئها إذا طال انسداد الأزمة أكثر.

2. اللحظة الجزائرية: الحِراك الحضاري بوصفه نموذجًا جزائريًّا جذّابًا للتغيير:

من الأمور التّي يفتخر بها الجزائريون اليوم أنّهم شعبٌ بنى أجداده دولةً جاءت بعد ثورة مجيدة سجلّتها كتب التاريخ، لا دولة جاءت "بالصدفة" نتيجةً لاتفاقيات دولية بين قوى متنافسة، أو دولة ناشئة عن حالة انتداب أو وصاية أو تفكّك تعرّضت لها القوّة المحتلة، إنّ الثورة كانت بمثابة الركيزة التّي بُنيت عليها الدولة الجزائرية بداية ستينيات القرن المنصرم، والمرجعية التّي احتكم إليها السياسيون حين الاختلاف- بل كانت هي مصدر الشرعية الأول الذّي يجعل الفرد الجزائري وطنيًّا أولا.

بعـد مرور نصف قرن ونيّف على اندلاع الثورة الجزائريـة، تعيش الجزائر اليوم لأوّل مرّة أعظم "ثورةٍ سلميةٍ" حدثت بأراضيها منذ الاستقلال، عدّها كثيرون تكملةً لحالة الاستقلال السياسي المنقوص، وامتدادًا لثورة نوفمبر 1954 التاريخية، إذ يضرب حراك الشعب الجزائري المليـوني اليـوم مثلًا مُلهمًا في "الثورة السـلمية" على أشـكال الظلم الاجتماعي والفسـاد كافة، وانسـداد الأفق الديمقراطـي في البلاد. إنّ الصور والفيديوهات المُذهلـة القادمة من الميادين هناك منذ شـهر فبراير الماضي تجعلنا نستحضر الإنجاز العظيم الذّي بنت عليه الجزائر نظامها السياسي ونموذجها في الحكم بفضل الشرعية المُكتسبة من ثورة نوفمبر 1954، بشكلٍ يجعلنا نُحاجج بإمكانية الاستثمار في الصورة التّي قدّمها حراك الشعب الجزائري الحضاري اليوم في بنـاء "شرعية جديدة" تُؤسَّـس عليها الجزائر من جديد، وتسـتفيد منها في بناء نموذج حكم قويّ يُلائم تطلّعات الجزائريـين. وبخاصّة أنّ جيل "الشرعية الثورية" يَختفي تدريجيًّـا، فضلًا عن أنّ هذه الكلمة كانت طيلة العقدين الماضيين مفتاحًا لكثيرٍ من المسـؤولين لتسـويغ فسادهم السـياسي أو الاقتصـادي. يـأتي ذلـك في وقـتٍ اتّجهت فيه أغلـب "موجات التغيير الشـعبية" في منطقة الشرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا منـذ سـنة 2011 إلى نـماذج متباينـة مـن التغيير الراديـكالي العنيـف، أو ذلك المنقاد بعامل الأيديولوجيا الحاد، ولو أنّه بدأ من دونها، وهنا تكمن إحدى فروقات الحراك الشعبي الجزائري عمّا سواه، فالشارع اليوم يكاد يُجمع على مسألتين مركزيتيْن: السلمية وعدم الانجرار إلى العنف مهما بلغت الاستفزازات، أمّا الأمر الثاني فتحييده لعامل الأيديولوجيا والحزبية ما أمكن، بعد ما كفر بأغلب الوجوه السياسـية القديمة، ولاسيّما تلك المنحازة أيديولوجيًا نحو هذا التيّار أو ذاك، وفي المسـألتين تكمن قـوّة هذا الحراك الحضاري. ومن المؤكّد أن الوقت لا يزال مُبكّرًا للحكم على نجاح الحراك أو استمراره على ذات الوتيرة السلمية الحضارية، فهذه مسـألةٌ أخرى تحكمها عواملُ كثيرةٌ تتجاوز إرادة الجماهير، لكن المطلوب من هذه الجماهير في الوقت الراهن أساسًـا هو المحافظة على وتيرة السـلمية والابتعاد عن كلّ ما من شأنه أن يعود بها نحو الاسـتقطابات الأيديولوجية التّي سـوف تُبعد الحراك على أهدافه المركزية.

بعـد مرور نصف قرن ونيّف على اندلاع الثورة الجزائرية تعيش الجزائر اليوم لأوّل مرّة أعظم "ثورةٍ سلميةٍ" حدثت بأراضيهـا منذ الاستقلال عدّهـا كثيرون تكملةً لحالة الاستقـلال السياسي المنقوص وامتـدادًا لثورة نوفمبر 1954 التاريخيـة إذ يضـرب حراك الشعـب الجزائري المليوني اليوم مثلًا مُلهمًا في "الثورة السلمية"

في مقابل ذلك، يقف من بيدهم السـلطة اليوم أمام لحظةٍ تاريخيةٍ بجدّ لن يُكرّرها التاريخ كثيرًا في هذا البلد، وعليهم أن يُحسنوا الاستثمار فيها بحكمة إذا أرادوا نقل الجزائر إلى مرحلةٍ جديـدة مـن القوة والتأثير على المسـتويين الداخـلي والخارجي، فمن المسـتحيل على الإطلاق المُضي قُدمًا في مشروع بناء جزائر قويّةٍ ومُؤثّرةٍ من دون أن يسـتغل صنّاع القرار هذه الفرصة التاريخيـة فيُشرفـوا بأنفسـهم على تعبيد الطريق لتجسـيد نمـوذجٍ جذّابٍ وناجـحٍ في التغيير،

وإنّها لفرصةٌ مناسبةٌ جدًّا لتحقيق ذلك ما دامت الجزائر تعيشُ اليوم مرحلةً انتقالية بأتّم معنى الكلمة. إنّنا نرى بأنّ أولى الخطوات الثابتة في المشروعات النهضوية الناجحة إنّما تبتدأ بتكريس قيم الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة والإيمان برأس المال الإنساني داخل المَجتمع وبين مؤسّسات الدولة، فالنظم السياسية المُعادية لروح الديمقراطية والفاقدة لشرعية وجودها لدى شعبها لن تكون قادرةً على إقناع الشعوب الأخرى بأنّها نموذجٌ ناجحٌ يستدعي التقليد أو الانجذاب، هذا هو مضمون القوة الناعمة التّي يتحدّث عنها الباحث الأمريكي جوزيف ناي وغيره، والمرتكزة أساسًا على القيم الإنسانية الجذّابة التّي تتجسّدُ داخلَ الدولة بفضل جهود الجهات الحكومية وغير الحكومية فتكسب رضى الجماهير والنخب، وتحفز لديهم رغبة الإسهام في إنجاحها.

لا يرتبط هذا الشرط كما قد يُفهم بالنظام السياسي ومراكز القوة داخله وحسب، ما دام العجز الديمقراطي الذّي تعرفه الجزائر عجزًا مُركّب الأسباب والأبعاد، فثقافة الديمقراطية والمواطنة والدولة المدنية الحديثة ثقافةٌ محدودةٌ لدى الجماهير، كما أنّها ثقافةٌ مُزيّفةٌ، إن صحّ التعبير، لدى طائفةٍ كبيرةٍ من نشطاء الساحة السياسية الجزائرية المعارضين والموالين على حدٍّ سواء.

إنّ الدول التّي قدّمت تجربةً ناجحةً في التغيير أو انتقالها نحو الديمقراطية (على غرار تركيا مثلًا) أو كانت سببًا أصيلًا في "إلهام العالم روح الديمقراطية" بعد أن أرست نظامًا ديمقراطيةً حُرّةً في الداخل (كالولايات المتحدة مثلًا)، منحت لنفسها شرعيةَ القول عند مُخاطبة هذا العالم، بل

إنّها نالت شرعية الفعل حتّى عند غزوه بقوّةِ البارود. باختصار، إذا أراد صنّاع القرار القائمون أو القادمون المُضي قُدُمًا نحو مشروع بناء جزائر قويّة، فما عليهم سوى قطع الارتباط بالماضي السياسي السلبي (لهم وللبلاد) الذّي ينخره كثيرٌ من الفساد، وبكلّ الوجوه التّي أسهمت في تكريسه على مستوى مؤسّسات الدولة أو الإعلام أو الأحزاب أو الجامعات ومنابر التعليم والدين، فرُوحُ الديمقراطية عنصرٌ حيويٌّ لهذا المشروع، يختصر الباحث الأمريكي جوزيف ناي هذا المضمون العام في مصطلحه الشهير "القوة الناعمة"، فيقول: "بأنّ القيم التّي تدافع عنها حكومةٌ ما فتنتصرُ لها بسُلوكها في الداخل (كالديمقراطية مثلا) وفي السياسة الخارجية، تؤثّر تأثيرًا قويًّا في تفضيلاتِ الآخرين، فالحكومات يمكنُ أن تجذب الآخرين أو تُنفرّهم بتأثير المِثال الذّي تضربه لهم بوصفها قدوة"[1].

ما نُركّز عليه في هذه الورقة وندعو إليه بإلحاح في هذه المرحلة الانتقالية هو ضرورة إدراك الجميع لأهميّة هذه اللحظة التاريخية التّي تمرّ بها البلاد، والتفكير في كيفية الاستثمار في مكتسباتها، فضلًا عن المحافظة على هذه المكتسبات. يُعدُّ التاريخ أهّم خزّانٍ مُساعدٍ على إنضاج هذا الإدراك الجمعي، فمعرفة هذا الجيل والأجيال القادمة من الشباب لتاريخ بلدهم ولحجم الإنجاز الكبير الذّي حقّقته ثورة نوفمبر 1954 على الأقل- أمرٌ من شأنه أن يُنضج هذا الإدراك، فضلًا عن تحصيل رؤية عامة عن الثورات الكبرى في التاريخ، وحركات التغيير الشعبية في العصر الحديث، وعقد المقارنات بينها، والتعلّم من كيفية استثمار النخب الأجنبية في مكتسبات ثوراتها وإنجازاتها التاريخية. يحرص الأتراك مثلًا على تخليد وإحياء نقاطهم المضيئة في التاريخ القريب والبعيد حتّى تبقى روحها تصنع وعي الجماهير المتعاقبة، وتُعزّز لديهم الحافز للمحافظة عليها، والسير على درب تضحياتها وغاياتها الكبرى، فذكرى على غرار معركة جناق قلعة التاريخية أو ذكرى المحاولة الانقلابية الفاشلة 15 من تموز 2016 حاضرةٌ في وعي الجيل الحالي، ومُوجّهةٌ لخياراته الفكرية والسياسية رغم ابتعادها في التاريخ، فهي مُجسَّدةٌ على سبيل المثال في معالم ملموسة وحيوية في البلاد على غرار جسر البوسفور الذّي تمّ تغيير اسمه إلى جسر شهداء الخامس عشر من تموز، وأُنشِئ مَعلم تذكاري ومسجد الشهداء بمحاذاته لتخليد واقعة الانتصار، فضلًا عن جسر جناق قلعة الضخم على مضيق الدردنيل، حيث يجري هناك إحياء ذكرى معركته الشهيرة في كلّ سنة بطرقٍ عدّة، كتنظيم رحلات ثقافية للشباب التركي، واستقدام الطلبة والسائحين الأجانب هناك، من دون الحديث عن الإنفاق الضخم على السينما وثقافة المسلسلات التاريخية الجذّابة التّي تُبقي مثل هذه المنعطفات الكبرى في التاريخ حيّةً في الوعي الجمعي للأفراد، مُوجّهةً لخياراتهم السياسية والفكرية في الحاضر والمستقبل.

باختصار، يقع على عاتق النخب الجزائرية في النظام والمجتمع المدني مهمّة نراها حيوية في هذا السياق، هي "فن صناعة الرموز والأيقونات والمصطلحات" المُساعِدة على قيادة روح

التغيير وتوجيهه، والمُحافِظة على مكتسبات المنجزات التاريخية الكبرى للشعب والأفراد، وأوّل هذه المصطلحات هو مصطلح الحِراك (بكسر حرف الحاء كما ينطقه الجزائريون في لهجتهم العامة لا كما يُنطق في اللغة العربية السليمة بفتح الحاء). على علماء السياسة الجزائريين العمل على صكّ تعريف جديد لهذه الكلمة ،وإدخالها إلى قاموس الانتقال الديمقراطي؛ لتكون مُرادفًا "لحركة التغيير الشعبية التّي تُحرّر بسلميّتها المطلقة مراكز القوة الوطنية في النظام السياسي الذّي ينخره الفساد، فتترافق إرادة الجماهير مع إرادة القوى الوطنية صاحب السلطة الجزئية فتحرّرها لتُحصّل القسط المتبقي من السلطة لصالح الوطن والشعب"، على المتخصّصين في علم السياسة والفلسفة السياسية أن يجتهدوا لصكّ مصطلحات وتعريفات مشابهة تكون مرادفًا للتجربة الجزائرية المحضة في التغيير، وهكذا يُسهم هؤلاء من جهتهم في الاستثمار في مكتسبات هذا الحِراك ولو بالقليل.

هناك الكثير من الرموز والأيقونات والشعارات التّي تمخّض عنها الحِراك الجزائري على غرار شعارات: "يتنحاو قاع" الذّي عكس "راديكالية التغيير السلمي" للجماهير الرافضة لكلّ أوجه الفساد السابق، كما أن من شأنه أن يصير بمثابة الشعار الرادع لكلّ مسؤول سيفكّر في استغلال السلطة التّي يمتلكها في خدمة مصالحه الشخصية على حساب الشعب والوطن. هناك شعارات كثيرة، أهمّها شعار "باديسية-نوفمبرية" (نسبة إلى المصلح الديني والاجتماعي عبد الحميد بن باديس وإلى ثورة نوفمبر 1954 المجيدة) الذّي يجسّد إرادة جماهيرية في الانطلاق من المرجعيات الوطنية الفكرية والسياسية في بناء الدولة المنشودة، أو شعار "الجمهورية الثانية" الذّي يعكس أيضًا روح القطيعة مع الماضي بكلّ ما فيه، والتطلّع إلى المستقبل وحسب، على طريقة القوى التنويرية التحرّرية الأوروبية منذ القرن السادس عشر. وبالرغم من التضارب الذّي قد يحمله الشعاران إلاّ أنّهما يُجسّدان أولًا إمكانية الجماهير صكّ رموزها وأيقوناتها الخاصّة بنفسها، وثانيًا قد يعكسان بدايةً جيّدةً لمجتمع حرٍّ يقبل بالتعدّد والاختلاف، فهي فرصةٌ تاريخيةٌ لبناء أرضيةٍ ملائمةٍ لمناخ روح الديمقراطية المنشودة لهذا المجتمع بدلًا من الاستمرار في تطعيم هذه الشعارات بغذاء الأيديولوجيا السام كما يحدث في دول الجوار العربي.

يقف الجزائريون شعبا ونُخبًا وصنّاع قرار اليوم أمام فرصةٍ تاريخيةٍ بحقّ لبناء الدولة المنشودة وصياغة نموذج التغيير الجزائري الذّي قد يشعّ إلى الخارج فيُغّير جغرافية المنطقة بأكملها -مثلما سنُحاجج بذلك في العنصر الأخير- لذا على كلّ طرفٍ من هؤلاء أن يُحسن الاستثمار في هذه الفرصة وأن يلتزم بمسؤوليته التاريخية.

فعلى الجماهير الشعبية أن تلتزم السلمية وعدم الانجرار وراء كلّ ما من شأنه أن يضرّ وحدة الوطن والشعب من أيديولوجيا أو هويّة أو ما شابه ذلك، أمّا صنّاع القرار (قيادة الأركان بالمؤسّسة العسكرية) فعليهم أن يجتهدوا في مرافقة مطالب الحِراك، وأن يحرصوا على

تجنّب أيّ انزلاق أمني، وأن يلتزموا بحدود الصلاحيات الدستورية للمؤسّسة العسكرية، وأن ينفتحوا على كلّ المبادرات للخروج من الأزمة، وأن يستمروا في تصفية رموز الفساد من دون انتقائية أو حسابات انتقامية شخصية ما دام الأمر في مصلحة الشعب والدولة، أمّا النخب المُفكّرة فهي صاحبة المسؤولية الكبرى هنا، ففضلًا عن حتمية مشاركتها في النقاش العام، وتوعية الجماهير لأهميّة اللحظة، واقتراح مبادرات للحلّ ودرء الانقسام، وتطوير آليات تردع الفاعل العسكري من احتكار السلطة ونقلها بشكلٍ سلس إلى الفاعل المدني عبر إعادة هيكلة قوى المجتمع المدني، وتصفية الأحزاب القديمة من رموز الفساد فيها، والتشجيع على تشكيل أحزاب شبابية جديدة حتّى لا تترك مسوّغًا للفاعل العسكري يجعله يستمر في احتكار السلطة بحجّة عدم نضج الفاعل المدني على تحمّل مسؤولياتها، فإنّ التحدّي الذّي ينبغي أن يضطلع به العلماء والمتخصّصون من هذه النخب هو ضرورة التفكير في نمطٍ توافقي جديدٍ للحكم، مناسب للخصائص المجتمعية والفكرية للجزائريين، ويكون مصدر إلهام للآخرين، تشعّ قوّته الناعمة إلى الخارج. إنّ الجزائر ضربت مثالًا قويًّا للعالم في ثورة نوفمبر 1954 المجيدة، جعلها محط جذبٍ وتقدير، ومنحها مكانةً لائقة بها بين الأمم، وقد أَفَلت قوتّها الناعمة تلك لعقود، وها قد حان الوقت مُجدّدًا لإحياء روح ثورة نوفمبر المجيدة بثورةٍ سلميةٍ حضاريةٍ سيُعلّم بها الشعب الجزائري العالم بأسره دروسًا كثيرة.

يقف الجزائريون شعبا ونُخبًا وصنّاع قرار اليوم أمام فرصةٍ تاريخيةٍ بحقّ لبناء الدولة المنشودة وصياغة نموذج التغيير الجزائري الذّي قد يشعّ إلى الخارج فيُغيّر جغرافية المنطقة بأكملها لذا على كلّ طرفٍ من هؤلاء أن يُحسن الاستثمار في هذه الفرصة وأن يلتزم بمسؤوليته التاريخية

3. قوتّنا الناعمة الكامنة والميتا-جيوبولتيك: الحِراك بوصفه مرتكزًا لمقاربة جديدة في السياسة الخارجية:

في سنة 1969، أطلق أميلكار كابرال –أحد أشهر الثوريين في القارة الإفريقية ضدّ الكولونيالية– على الجزائر العاصمة تسمية "مكّة الثوّار"، وهي تسميةٌ ظلّت ملاصقةً لها منذ الاستقلال إلى نهاية الحرب الباردة. لم يكن ذلك بسبب الزيارات الكثيفة لقادةٍ ثوريين مشهورين لها طيلة فترة الستينيات من القرن المنصرم على غرار تشي غيفارا، وياسر عرفات، ونيلسون مانديلا، ولكن لأنّ المئات من التروتستيين، والآنركيين، وشتّى أنماط ثوريي العالم الثالث ظلّوا يلتقون بالعاصمة الجزائرية طيلة تلك الفترة؛ لأجل إجراء نقاشاتٍ، وبناء شبكاتٍ، ودراسة التجربة الجزائرية في التحرّر الثوري،[2] كان هذا الأمر كفيلًا لوحده بمنح الجزائر دورًا رائدًا في قيادة العالم الثالث المتمزّق بين مصالح الشيوعية والرأسمالية أيّام الحرب الباردة؛ وذلك عبر مُنظّماتٍ عديدةٍ كان أهمّها منظّمة دول عدم الانحياز، أو عبر جهودها الدبلوماسية الفاعلة. إنّ الجزائر كانت الدولة الأكثر إلهامًا لثوريي العالم ضدّ

الظلم والعنصرية وقوى الاحتلال، وقد بلغت سمعتها آفاق العالم من جاكارتا إلى إيران إلى فلسطين إلى جنوب إفريقيا إلى كوبا وأمريكا اللاتينية، ولا تزال هذه السمعة الحسنة قائمةً إلى الآن، بالرغم ممّا عاشته الجزائر من مشكلات.

كانت ثورة نوفمبر 1954 ضدّ الاحتلال الفرنسي مصدرًا لشرعية السلطة في الداخل، ومصدرًا لقوّة البلد الناعمة في الخارج، وهذا جعلها محطّ اهتمام وجذب، ولاسيّما بين كتلة العالم الثالث آنذاك، بل إنّ هذه الثورة كانت قد أسهمت في الماضي في تشكيل الخريطة الجيوبوليتيكية لعالم الحرب الباردة، حينما مارست الجزائر المتحرّرة دورًا قياديًّا في العالم الثالث، عبر منظمة عدم الانحياز مثلًا، أو دورها الحيوي في الوساطات الدولية بنزاعات عديدة في جوارها الإقليمي، أو في الشرق الأوسط أيضًا. لكن، للأسف لم تتمكّن الجزائر من تطوير مصادر قوتّها الناعمة منذ تلك اللحظة، بل حتّى إنّ صيت الثورة المجيدة بوصفها مصدرًا حيويًّا لهذه القوة أخذ في التلاشي، وعجز صنّاع القرار عن المحافظة عليه وتطويره وفقًا لحاجيات وخصائص أجيال العصر الجديد. والحقيقة أنّ المتتبّع لسياسة البلد الخارجية منذ الاستقلال إلى الآن سوف يُلاحظ ثباتًا صلبًا في منطلقاتها، ومبادئها، وآلياتها وأدواتها، بالرغم من التحوّلات الجذرية والتغيّرات الكثيرة التّي عرفها العالم منذ تلك الفترة، ولاسيّما تلك التحوّلات التي طالت مفاهيم القوة، والتأثير، والأمن، والدولة، والجغرافيا/ المكان، وهذا الذّي جعل السياسة الخارجية الجزائرية سياسةً تقليديةً صارمةً غير قادرةٍ على مواكبة متطلّبات العصر وتحوّلاته، وجعل من الجزائر لفترة طويلة بلدًا محدود التأثير في الخارج، غير قادرٍ على الإشعاع من جديد.

كانت ثورة نوفمبر 1954 ضدّ الاحتلال الفرنسي مصدرًا لشرعية السلطة في الداخل ومصدرًا لقوّة البلد الناعمة في الخارج وهذا جعلها محطّ اهتمام وجذب ولاسيّما بين كتلة العالم الثالث آنذاك بل إنّ هذه الثورة كانت قد أسهمت في الماضي في تشكيل الخريطة الجيوبوليتيكية لعالم الحرب الباردة

ممّا نُحاجج به في هذه الورقة أنّ الحِراك القائم يُمثّل فرصةً سانحةً لصياغة مقاربةٍ جديدةٍ في سياسة البلد الخارجية، من شأنها أن تحيي إشعاع تلك الحقبة الذهبية في تاريخ الدبلوماسية والسياسة الخارجية الجزائرية من جديد؛ مقاربةٍ تُحرّر سياسة البلد الخارجية من نمطها التقليدي الصلب الذّي لا يزال يتعامل مع هذا العالم الجديد لكن بأدواتٍ تقليديةٍ قديمة. لذلك، وجب على صنّاع القرار والنخب المفكرة إحسان الاستثمار في مكتسبات هذا الحِراك، والحرص على إنجاح مساعيه ووتيرته السلمية الحضارية إذا أرادت الجزائر العودة إلى ساحة التأثير الإقليمي والعالمي من جديد، وبخاصّة في حقبةٍ تعيش فيها منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا لحظةً ثوريةً حادت كثيرٌ من دولها عن حُسن الاستثمار فيها نظرًا لظروف عدّة.

يُعطينا علم الجيوبوليتيك النقديّ في هذا الصدد تبصّرات مناسبةً، فهو علم يمكنّنا قبل كلّ شيءٍ من "بناء تصوّراتٍ تكوينيةٍ" عن الحدث الأعظم المسمى "بالحِراك"، فهوً على العموم علمٌ يُركّز على:

أ. المكان، والذّي يُعرف بكونه أوسع من الجغرافيا المادية التّي ترتكز عليها الجيوبوليتيك الكلاسيكيّ (فالمكان هنا مرادفٌ مثلًا للفضاء الافتراضي، والفضاء الخارجي...إلخ).

ب. مختلِف اللاعبين في العلاقات الدولية، لا على القوى الكبرى فقط ، على غرار الأعراق، والمنظمات غير الحكومية، والإرهابيين، والأقليّات الإثنية والدينية، ولم يبق الجيوبوليتيك منحصرةً في الاهتمام بالدولة وحسب.

ج. لم يعد علم الجيوبوليتيك يُركّز فقط على المستوى العالمي للتفكير والتحليل، ولكن على المستويين الإقليمي والمحلّي أيضًا.

وإذا أردنا أن نختصر جوهر هذا العلم، فإنّ الجيوبوليتيك النقديّ يرى أنّ جغرافيا العالم لا تُعدُّ نتاجًا للطبيعة (الجغرافيا بوصفها معطى) وإنّما نتاج لتاريخ من الصراع بين سلطاتٍ متنافسةٍ حول القوة/ السلطة لتنظيم العالم، واحتلاله وإدارته". ووفقًا لذلك، فإنّ الجغرافيا النقدية متغيّرة بسبب القرارات السياسية والشخصية؛ لأنّها تُحكَم وتُقاد من طرف الإنسان.[3] فالإنسان هنا بمدركاته، وقيمه، وإراداته، وطموحاته والأهمّ من ذلك بخيالاته- هو الفاعل الأول والأساسي الّذي يمنح الأهمية أو ينزعها عن الجغرافيا/ الأرض/ المكان، والمقصود بالإنسان هنا صنّاع القرار بالأخصّ، وأصحاب السلطة والسطوة.

هناك مبحث ذو أهميّة ضمن منظور الجيوبولتيك النقديّ اسمه الجيوبوليتيك الشعبي (Popular Geopolitics / Folk) ،والذي يتشكّل تحت تأثير وسائل التواصل، والمسرح، والروايات، والجرائد (الثقافة الشعبية)، ومِن ثَمّ فهو يُنشِئ وعيًا واسعًا منتشرًا للتصوّر الجيوبوليتيكي للمواطنين. كما يُعنى بالطرق التّي يُمكن من خلالها وضع فهم سائدٍ للقضايا الجيوبوليتيكية المُنتجة، التّي يُعاد إنتاجها عبر الثقافة الشعبية، من هنا، فإنّ دراسات الجيوبوليتيك الشعبية ترتكز على فكرة العلاقات المتكرّرة بين الثقافة الشعبية والوعي الشعبي بالأخص، فإنّ الدراسات المهمّة للصحف، والأفلام، والرسوم الكرتونية، والمجلات- تُنشَر كلّها بعد مراجعات دقيقة. بعبارةٍ أخرى، فإنّ الأفراد وجماعات الناس ترسم بشكلٍ مستمرٍ خرائط العالم والإقليم أوحتّى خرائط مدنهم أيضًا.[4]

وهناك في الجيوبوليتيك النقديّ أيضًا ما يُسمّى "بالتخيّل الجيوبوليتيكي" (Geopolitical Imagination) ويرتبط بظاهرة تخيّل المكان أو ما يُسمَّى بالجغرافيا الماورائية (Meta-geopolitics)، عندما يعترف بإقليم مُحدّد بعينه بوصفه إقليماً مهمًّا جدًّا بالنسبة لهم. من الممكن أن يصير بالنسبة لهم ذلك "الوطن المفقود" (The Lost Homeland) في أثناء

النـزاع العسـكري، حينما تُجبَرُ مجموعات مـن الناس على الرحيل أو التوطـين من جديد. يُعدّ "المكان التخيّلي" منطقة يريد الناس البقاء فيها أو الاحتماء بها أو إنشاء منطقة نفوذ بها أيضًا. على سـبيل المثال، التصوّر الروسي "للخـارج القريب" (Near Abroad). شرع الباحثون الغربيون في التفكير أيضًا بشـأن إدراك المكان المُسـمّى بالـ:(Meta Geography) والذّي يجـري بموجبه التعبـير عن خرائط متواجدة في أذهان ووعي مختلـف المجموعات الاجتماعية عـبر العـالم، ويُوضّح مدى قـوة اعتماد العلاقـات الاجتماعيـة المرتبطـة بالأرض/ الجغرافيا/ المكان على التاريخ، والثقافة، والتقاليد، وحتّى على الأسـاطير.[5]

مـا نريـد تأكيده هنا هو أنّ التحـدّي الأول الذّي ينبغي أن يضطلع بـه صنّاع القرار الجدد عندنا، وكذا النخب المفكرة هو ذلك المرتبط بمدى قدرتهم على جعل الجماهير منتشـية بأهمية هـذا الحِـراك باعتبـاره إنجازًا تاريخيًّا، وسـوف يـؤدّي تكافـل الجميع لأجل إنجاح مسـاعيه بالجزائـر إلى أن تتحـوّل مـن مجرّد "جغرافيـا مُعَطلّـة" إلى "جغرافيا مُؤثِّرة مُشِّـعة في الخارج"، وذات قدرة هائلة على ترويج القيم والثقافات الغنية الكامنة بها، وتحويلها من مُجرّد قيم محليّة إلى قيم إقليمية ذات جاذبية تغوي الجميع بالتقليد والمحاكاة، وهنا ستكمن القوة الناعمّة لهذا البلـد الثـريّ بالثقافات والأصيل بتاريخه وإنجـازات رموزه التاريخيـة، والفكرية، والثقافية، والفنيّـة عـلى حـدٍّ سـواء. فالتصوّرات الإيجابيـة التّي يتقاطع في تكريسـها الخطاب السـياسي لصنّاع القرار، يُكرّرها المعلّقون في الإعلام، وتتداولها نخب المجتمع، أو يجد لها المتخصّصون أطـرًا علميةً نظريةً من شـأنها أن تخلق مناخًا شـعبيًّا عامًّا وحاضنًا، وبخاصّـةً إذا كانت: "... ترتكـز عـلى قصص مُسـتودعة في أسـاطير وطنية، والتّي يسـهل على عامـة الجماهير الوصول إليهـا"، على حدّ تعبير الباحث كولـين فلينت (Colin Flint)، وحينهـا يصير الجيوبوليتك "جيوبوليتيكا شعبية" يُكرّس فيه السياسي والمفكّر صورًا إيجابيةً بعينها في وعي الجماهير عن الوطن والشـعب، ويكون فيها الخطاب، والكتب، والصحف، ووسـائل الإعلام، والأفلام، والمسلسلات وما شابه ذلك أدوات ناجعةً جدًّا لأجل هذا الغرض. باختصار، على الجميع أن يخلـق المجد بعينه من هذا الحِراك لمصلحـة الجزائر، والأمر يعتمد في ذلك على مدى القدرات العقلية والتخيليّة للباحثين والنخب المفكرة والحاكمة على إضفاء الأهمية على الحِراك باعتباره الحـدث الأعظم، وعلى المكان (جغرافية الجزائر) باعتباره ميـزةً جغرافيـةً حضاريـةً متفـرّدة.

إضافةً إلى ما سبق، فإنّ أهمّ إنجاز سوف يُحقّقه هذا الحِراك إذا نجح هو استرجاع الجزائر لسـيادتها الكاملة، وتحصيل إرادةٍ حرّةٍ ومسـتقلةٍ عن المسـتعمر القديم، فرنسـا، إنّ من شـأن ذلـك أن يُغـيّر في المسـتقبل القريـب ميـزان القـوى في منطقة شـمال إفريقيا وغرب المتوسـط بأكملهـا، ويدفـع الجزائر قُدمًا إلى متابعة سياسـة خارجية جديدة تسـتغل فيهـا قوتّها الكامنة المُعطّلـة، فلطالمـا ظلّت فرنسـا تقـف وراء كثير من الانتكاسـات التّي عاشـتها الجزائر خلال الثلاثـين سـنة الماضية، منـذ أن تمكّن الموالون لهَا داخل النظام السـياسي الجزائـري (المُقرّرون

Les Décideurs) من التحكّم في مقادير السلطة والقوة في البلاد، فظلّت الجزائر بسبب هـؤلاء قبل الجميع تسـير على نحو بطيء جدًّا في مسـار التنمية، كـما أورث هؤلاء لمن خلفهم بلدًا ينخره الفسـاد في شـتّى القطاعات.

نجـاح حـراك الجزائر مثلًا سـوف يعيد كتابـة تاريخ العلاقـات الفرنسـية–الجزائرية من جديد، بل وتاريخ فرنسـا بعالمها القديم جميعًا، وسوف تتزايد الضغوط على فرنسا للاعتراف بجرائمهـا الشـنيعة في الجزائر طيلة قـرنٍ ونيفٍ من الزمن، ويجرّ الاعـتراف تبعاتٍ ماديةً على اقتصادها على شـكل تعويضات، كما من شأنه أن يُؤثّر سلبًا على قوة فرنسا الناعمة، وصوتها، وصورتهـا العالميـة المبنية على قيم عهد أنوارها المشرق. وعلى المسـتوى الثقافي، سـوف يؤدّي نجـاح حراك الجزائر الشـبابي إلى سـقوط قلعـة الفرنكوفونيـة العظمى لفرنسـا في العالم، أي الجزائر، فشـباب الحـراك المنفتح على العالم الجديد بثقافاته ولغاتـه المتعدّدة لم يعد يجد في اللغة والثقافة الفرنسـية لوحدها تعبيرًا عن طموحاته العالمية، إذ تسـبّبت آثار العولمة والفضاءات المفتوحـة بإعلامهـا البديل في صعود جيلٍ جديدٍ يختلف في ثقافته عـن جيل الآباء والأجداد الذّين كانت فرنسـا بالنسـبة لهم بوابتهم الأولى والأساسـية نحو العالم.

على المسـتوى الجيوسـتراتيجي، سـوف يُنهي نجاح حـراك الجزائر آخر مـا تبقى من نفوذ فرنسـا المتهـاوي أصلًا في الجزائر، وفي شـمال إفريقيا الّـذي صار ورشـةً مفتوحةً لمشروعات الصين الاقتصادية ونفوذ روسـيا العسكري، ولاسيّما في الجزائر، إذ تجاوزت الصين فرنسا في الجزائر سنة 2014 بوصفها أولّ مستثمرٍ ومتعاملٍ اقتصادي، فضلًا عن أنّ الجزائر تستضيف أكبر جالية عمّالٍ صينيةٍ في إفريقيا، بلغ عددهم 50 ألف عاملٍ، كما لا ننسى بأنّ البنية التحتية

الجزائريـة من طرقٍ ومنشـآتٍ صارت أغلبها صينية الصنع،[6] في حـين تحتكر الجزائر لوحدها 52 ٪ مـن مبيعـاتٍ السـلاحٍ الـروسي لإفريقيـا، ويُعَدّ 75 ٪ من السـلاح الجزائري سـلاحًا روسـيًّا محضًا،[7] بل حتّـى قطاعات الغاز والنفط صارت حصص فرنسـا منها مُهدّدةً تمامًا مع تنامـي العلاقـات الجزائرية–الصينية من جهـة، والجزائرية–الأمريكية من جهةٍ أخرى خلال العقديْـن الأخيريْـن.

كما أنّ تمكّن الحراك من بلوغ غاياته الكبرى من شأنه أن يؤسّس لنظام سياسي قويٍّ يُباشر إصلاحـاتٍ بنيويـةٍ عميقةٍ في الاقتصـاد والمجتمع، بحيث تغـدو الجزائر قوةً إقليميـةً حقيقيةً في شـمال إفريقيا وغرب المتوسـط، بل ومن شـأن نظام كهذا أن يُوسّـع آفاق التأثير الخارجي للجزائر عسـكريًا، واقتصاديًا، وثقافيًا لتشـمل كامل الإقليـم، ويُنعش مبادرات التكامل بين دول المغرب الكبير، وسـوف يؤدّي نجاح الحراك إلى تحرير "شـعوب المسـتعمرات القديمة" مـن آخـر ما تبقى من نفوذٍ تقليدي لفرنسـا هناك، وسـوف تجد الجزائر نفسـها في مقدّمة دولٍ متحرّرةٍ تحتاج قيادةً إقليميةً يُمكن للجزائر أن تضطلع بها كما فعلت من قبلُ بعد الاستقلال، حينما كانت تُسـمّى بمكة ثوّار العالم.

أخـيرًا، فـإنّ نجاح الحراك وقيام نظام قويّ ينشـئ دولةً قويةً سـوف يعنـي تطوير الجزائر لآلياتٍ جديدةٍ تُمكّنها مستقبلًا من التأثير في جاليتها الضخمة في عقر الديار الفرنسية ذاتها، إذ يوجد هناك أكثر من 7 ملايين جزائري، بإمكانهم أن يتحوّلوا مستقبلًا إلى أداةٍ سياسيةٍ مؤثرةً جدًّا في السياستيْن الداخلية والخارجية الفرنسية، بشكلٍ قد يقلب ميزان القوى التقليدي بين البلدين بشـكلٍ جذريٍ لمصلحة الجزائر.

لقـد حرصـت فرنسـا دومًا عـلى أن تكـون الجزائر عـلى الضفة الجنوبيـة للمتوسـط كتلةً جيوبوليتيكيةً عازلةً لجميع أشـكال المخاطر والتهديدات القادمة من الجنوب والمهدّدة لأمنها القومـي وأمـن حلفائها الأوروبيين؛ لذا فقد حرصت على الاسـتقرار الأمني للجزائر من أيّ اضطرابـات أو فوضى تُفقدها هذا الـدور العازل، وتحوّل أوروبا إلى جحيم وذلك من خلال دعـم رجالها في النظام السـياسي الجزائري، لكن مع الحـرص في المقابل عـلى ألّا يتحوّل هذا الاسـتقرار الأمني إلى اسـتقرارٍ اقتصادي أو ازدهارٍ ورفاهٍ اجتماعي من شـأنه أن ينقل الجزائر مـن الخضـوع إلى التأثير، ومن السـيادة المنقوصة إلى الإرادة الحرّة والاسـتقلالية القرار، إلاّ أنّها اليوم تفشل تبعًا في فقدان نفوذ رجالاتها هؤلاء[8]، بدءًا بإبعاد العسكر للرئيس عبر الاستقالة، ثـمّ حملـة الاعتقـالات المكثّفة التّي باشرتهـا القيادة العسـكرية تجاه كلّ رموز النظام السـابق، وبخاصّـة الذّيـن مثّلـوا أو يمكن أن يُمثّلـوا ذراعًا لفرنسـا في الجزائر ما بعـد بوتفليقة، وعلى رأسـهم الجنرال المتقاعد محمد مدين ودولته العميقة كما يُسـمّيها الجزائريون.

لأسـباب كهـذه وأكثر، سـوف تبذل فرنسـا كلّ ما في وسـعها لإفشـال الغايـات الكبرى لحـراك الجزائر، سـواء من الداخل بإثارة نَعـرات عرقية وهوياتية كما تفعـل في منطقة القبائل

شـمال البـلاد، أو كما فعلـت في منطقة غرداية من قبل، أو من الخارج عـلى مقربة من حدودها كـما تفعـل الآن في ليبيا بدعم مغامـرات اللواء حفتر اللاعقلانية، أو في مـالي والنيجر جنوب الجزائـر بالتعاون مع الإسرائيليين، واللعب على ورقـة الإثنيات المتوّزعة هناك والمتداخلة مع الجزائـر عـلى غرار جماعات الطوارق والأزواد، فضلًا عـن تحريكها ورقة الجماعات الإرهابية عـبر السـاحل الصحـراوي، أو حتّـى إمكانيـة اسـتثمارها في نقـاط الاختـلاف بـين الجزائـر والمغرب، ودعم الأخير في قضية الصحراء الغربية، أو في بعض طموحاته الإقليمية الأخرى على حسـاب الجزائر.

يبـدو بالفعـل أنّ الجزائـر تعيـش الآن ثورة اسـتقلال جديدة عـلى غرار ثورتهـا التاريخية المجيدة عام 1954م، وسـوف تُحدّد نتائجها مسـتقبل هذا البلد، ومستقبل النفوذ الفرنسي في الجزائر، وعالم فرنسـا الاسـتعماري القديم، بل ومسـتقبل ميزان القوى في منطقة شمال إفريقيا وغرب المتوسـط أجمع.

بديلًا عن الخاتمة:

لقد حاججت هذه الورقة منذ البداية بأهميّة إدراك اللحظة التّي تمرّ بها البلاد، لحظة الحِراك الحضاري الذّي يُقدّمه شـعب الجزائر، وبضرورة تعظيم أهميّة هذا المنجز، وإحسـان الاستثمار في مخرجاته من قِبل النخب المفكّرة والحاكمة على حدٍّ سواء؛ ابتداءً بجعله مرتكزًا لبناء شرعية جديدة لنظام سـياسي جديـد يتطلّع إلى بناء الدولة المنشـودة، وصياغة نمـوذج تغيير جزائري جذّاب لجميع الحركات الشـعبية المتطلّعة إلى الحرّية والكرامة في العالم، وانتهاءً بصياغة مقاربة جديدة لسياسة البلد الخارجية تُحسن استخدام أدوات العصر، والتفاعل مع مستجدات العالم الجديد بدلًا من الارتهان إلى سياسـةٍ تقليديةٍ بـأدواتٍ قديمةٍ صُمّمت من قبل لتتفاعل مع عالمٍ قديم، عالم الحرب الباردة.

تذهـب ورقتنـا إلى أبعـد من ذلـك حينـما تُؤكّد أنّ مسـتقبل القـوة الجزائريـة كامن في جغرافيتهـا، بمعنـى أنّـه ضـاربٌ في عمقهـا الحضـاري والثقافـات المتعـدّدة الثريّـة التّـي احتضنتهـا هـذه الجغرافيـا منـذ آلاف السـنين، فالموقع الجغـرافي للجزائـر لوحده لابد أن يرسـم انطباعًا بالعظمـة لدى صانع القرار والأكاديمي المُنظّر على حدٍّ سـواء، فهو انطباعٌ يُؤكّـد في مـدركات كليهـما أهميّـةً بالمكان/ الجغرافيا/ الفضاء، ويشـّجع مِن ثَـمّ على إبداع الصيغ السياسـية والمشروعات الجيوسـتراتيجية الأنسـب لهـذه الجغرافيـا الحضارية. فإذا كانـت الجغرافيـا تُحتّـم بذاتهـا قـدرًا واعدًا تنتظـره الجزائـر، فإنّها سـتظّل جغرافيـا مُعطلّة عميقـة غـير قـادرة على التأثـير والإشـعاع في الخارج مـا دام الإنسـان (صاحب السـلطة المعرفيـة والماديـة) غير قـادر على الاسـتثمار في مزاياها الحضاريـة، وآخر هـذه المزايا زمنًا هـو هـذا الحِـراك القائـم إلى الآن.

الهوامش والمصادر :

- ملاحظة: استخدمت كلمة الحراك في هذه المقالة بكسر الحاء نظرا لاستخدامها الشائع علما أن الاستخدام الصحيح للكلمة هو بفتح الحاء.

1. جوزيف ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 2007، المملكة العربية السعودية، ص: 25-26.
For more Informations see: Jeffrey James Byrne, Mecca of Revolution: Algeria, Decolonization, and the Third World Order, Oxford University Press, 2016, UK.
https://goo.gl/ENjvN6

2. MJ Feichtinger, Zeitgeschichte in globaler Perspektive, Universität Bern, 2017 -Germany, p: 01 ,214-1.
https://goo.gl/D1pTJx

3. Agnieszka legucka, New Geopolitics – What is Actually "new"?, The Copernicus Journal of Political Studies, Issue 2 (4) 2013, Warsaw-Poland, P: 12.
https://goo.gl/B3kajQ
تطوّر التيّار النقدي في الجيوبوليتيك بالغرب منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين، في فرنسا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة أساسًا. ويُعَدّ الأستاذ جيروا أوتواثيلا (Gearóid Ó Tuathaila) مبتكر مصطلح الجيوبولتيك النقديّ، وأكبر مروّج له على الإطلاق، يتجلّى روح الجيوبوليتيك النقدي أيضًا في كتابات كل من: كلود دودز، جون أكنبو، سيمون دالبي، تيموثي لايك ليسلي هيبل، بول روتليدج، جايمس سيداواي، جون أو لوتلين، لويزا بيا لاسفيتز وآلان إنغرام، وترجع جذور علم الجيوبوليتيك النقديّ إلى جذرين رئيسين: إعادة تأهيل وتطوير الجيوبوليتيك من جهة، والتفكيكية (ما بعد البنيوية) التّي يعود الفضل في ظهورها إلى أعمال كلّ من جاك ديريدا وميشال فوكو من جهةٍ أخرى، واللذيْن ركزّا بقوة على الجوانب السوسيولوجية للعلاقات الدولية.. للمزيد انظر:
Agnieszka legucka, Op Cit, P: 13.

4. Agnieszka legucka, Op Cit, P: 14.

5. Agnieszka legucka, Op Cit, P: 16.
تُعَدّ السينما والإعلام من أبرز الأدوات الفاعلة في ذلك، وقد ناقشنا ذلك في مقال سابق، للاضطلاع انظر:
جلال خشيب، "أولاد الحلال"، السينما الجزائرية وقوتّنا الناعمة الصاعدة، المعهد المصري للدراسات، 31 مايو 2019، إسطنبول-تركيا.
https://eipss-eg.org/ %D8 %A7 %D9 %84 %D9 %82 %D9 %88 %D8 %A9- %D8 %A7 %D9 %84 %D9 %86 %D8 %A7 %D8 %B9 %D9 %85 %D8 %A9- %D8 %A8 %D9 %8A %D9 %86- %D8 %A3 %D8 %B1 %D8 %B7 %D8 %BA %D8 %B1 %D9 %84- %D9 %88 %D8 %A3 %D9 %88 %D9 %84 %D8 %A7 %D8 %AF- %D8 %A7 %D9 %84 %D8 %AD %D9 %84 %D8 %A7 %D9 %84- %D8 %A7 %D9 %84 %D8 %AC %D8 %B2 %D8 %A7 %D8 %A6 %D8 %B1 %D9 /%8A
للاطلاع على تفصيلات أكثر عن موقع فرنسا، وكذا عن أبرز القوى الدولية والإقليمية من حراك الجزائر انظر:
جلال خشيب، صدام الإرادات: التقاطعات الدولية والمحلية في حراك الجزائر، المعهد المصري للدراسات، 02 أبريل 2019، إسطنبول-تركيا، ص-ص: 26-39.

6. Djallel Khechib, One Belt, Different Aims: Beyond China's Increasing Leverage in The Grand Maghreb, INSAMER Center, 04 October 2018, Istanbul-Turkey, P: 03-04.

https://insamer.com/rsm/icerik/dosya/dosya_1665.pdf
7. Djallel Khechib, Why Algeria is Arming Itself Militarily? INSAMER Center, 10 September 2018, Istanbul-Turkey.
https://insamer.com/en/why-algeria-is-arming-itself-militarily_1613.html
8. جلال خشيب، كيف شكّل الحراك الجزائري صفعة لفرنسا، موقع TRT عربي، 19 أبريل 2019، إسطنبول-تركيا.
https://www.trtarabi.com/opinion/ %D9 %83 %D9 %8A %D9 %81- %D8 %B4 %D9 %83- %D9 %84- %D8 %A7 %D9 %84 %D8 %AD %D8 %B1 %D8 %A7 %D9 %83- %D8 %A7 %D9 %84 %D8 %AC %D8 %B2 %D8 %A7 %D8 %A6 %D8 %B1 %D9 %8A- %D8 %B5 %D9 %81 %D8 %B9 %D8 %A9- %D9 %84 %D8 %A7 %D8 %B3 %D8 %B1 %D9 %86 %D8 %B1 %D9 %81 %D8 %B1 %D9 %81-17649